الدرس النحوي بين التنظير والتطبيق بحث تقدم به الأستاذ : سالم علوي للندوة المنعقدة بكلية الآداب شعبة اللغة العربية وآدابها جامعة فاس المملكة المغربية (تحليل النص بين الوصف والتفسير والتأويل)

سالم علوي
- جامعة الجزائر

I مدخل تاريخي :

تعد دراسة النصوص دراسة علمية مفهوماً حديثاً ، هيأته لنا المناهج العلمية التي فجّرتها الأفكار المتطورة التي هتكت الحجب وكسرت الحدود بين الأمم والشعوب ، فشيعت النظريات العلمية بين اللغات المتباينة ، والآداب المختلفة ، بفضل التطور التكنولوجي ، وتيسير الترجمة والتسجيل ، ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة . وأصبح العالم كله أسرة واحدة ، يَجْمَعُهَا نمط التشابه في السلوك والملبس والتعلم والتعليم . هذا الزلزال الذي كسّر السدود بين قارات العالم لا يمانع من أن يكون لكل أمة من الأمم نمط حضاري متميز عن الأنماط الحضارية الأخرى .

فاللسان العربي لم يعرف دراسة النصوص الأدبية واللغوية بالمعنى الحديث ، وانما كانت هناك ارهاصات بدأت تلوح في أفق الثقافة العربية ، منذ نزول القرآن ، في شكل أسئلة وأجوبة ، أغلبها تتعلق بمعنى الكلمة المفردة ، والبيت المفرد ثم بدأت تنمو هذه الدراسة شيئاً فشيئا حتى تجمعت في تفاسير القرآن الكريم وبعض الشروح للمعلقات السبع كما فعل الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال . وكذا الزوزني والتبريزي في شرحه للقصائد العشر ، كما ظهرت شروح مختلفة للأحاديث النبوية .

- ويتبع هؤلاء في شرحهم مبدأ استقلال البيت المفرد يقول أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في قول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

«قفا : أمر ، ونبك جوابه ، ومن صلة نبك قوله : قفا» .

في الاعتلال له ثلاثة أقوال :

أحدها أن يكون خاطب رفيقين له ، وهذا مما لا نظر فيه والقول الثاني أن يكون خاطب رفيقاً واحداً وثنى ، لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الأثنين فيقولون للرجل : قوما ، اركبا ، قال الله تبارك وتعالى مخاطباً لمالك خازن جنهم : ﴿ألقيا في جهنم كُلَّ كَفَّار عنيد﴾[1] فثنى وانما يخاطب واحداً ، وقال الشاعر :

فان تزجراني يا ابن عفان انزجر وان تدعاني أحم عرضاً ممنعاً

أبيت على باب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعاً

والقول الثالث : أن يكون أ راد قفن بالنون ، فأبدل الألف من النون وأجرى الوصل على الوقف ، وا ُكثر ما يكون هذا في الوقف ، وربما أجرى الوصل عليه ، وكان ا لحجاج اذا أمر بقتل رجل قال : «يا حارسي أضربا عنقه» . قال أبو بكر : أراد اضربن . فأبدل الألف من النون . وقال الله عز وجل[2] ﴿لنسفعا بالناصية﴾ . وقال في موضع آخر ﴿وليكونا من الصاغرين﴾[3] فالوقف عليها لنسفعا وليكونا[4] .

نلمس في منهج الأنباري ظاهرة الإعراب . بادىء ذي بدء ثم التعليل في أوجه تثنية اسناد الفعل إلى اثنين ويضبطها في ثلاثة أ وجه ، ويعزز هذه الأوجه بالأدلة والشواهد من القرآن أولاً ثم من الشعر العربي ، ويتوسع في ذلك فيستعرض لنا معارفه العلمية ، ويهمل النص اهمالا ويبتعد عن تفسيره وتأويله وعلاقات الكلم بعضها ببعضها ، ولا بأس أن نعرض هنا لنمط من التفسير النحوي عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في نفس البيت «اعلم أنا اذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام الى قائله ، لم تكن اضافتنا له من حيث هو كلم وأوضاع لغة . ولكن من حيث توخى فيها النظم الذي بينا أنه عبارة عن توخي معاني النحو في معاني الكلِم . ويزداد تبينا لك بأن ينظر في القائل اذا أضفته الى الشعر ، فقلت : أمرؤ القيس قائل هذا الشعر : من أين جعلته قائلاً له ؟ أمن حيث نطق بالكلام ، وسمعت ألفاظها من فيه ، أم من حيث صنع في معانيها ما صنع ، وتوخى فيها ما توخى ؟ فان زعمت أنك جعلته قائلاً له من حيث أنه نطق بالكلام وسمعت ألفاظها من فيه على النسق المخصوص ، فاجعل راوي الشعر

قائلاً له ، فانه ينطق بها ويخرجها من فيه على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر وذلك ما لا سبيل لك إليه ، فان قلت : ان الراوي وان كان قد نطق بألفاظ الشعر على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر فانه لم يتبدئ فيها النسق والترتيب ، وانما ذلك شيء ابتدأه الشاعر ، فلذلك جعلته القائل له ، دون الراوي - قيل لك خبرنا عنك - أترى - أنه يتصور أن يجب في ألفاظ الكلم التي تراها في قوله :

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» .

هذا الترتيب ، من غير أن يتوخى في معانيها ما تعلم أن امرأ القيس توخاه من كون «نبك جواباً للأمر ، وكون «من» معدية له الى «ذكرى» وكون «ذكرى» مضافة الى «حبيب» وكون «منزل» معطوفاً على «حبيب» . أم ذلك محال ؟ فان شككت في استحالته لم تكلم ..»[5] .

«ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة ، والتباعد عنها الى ما ينافيها من الرذيلة ، ليس بمجرد اللفظ ، كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد فيها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فلو أنك عمدت الى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد . وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول في :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

«منزل قفا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كال البيان الى مجال الهذيان . نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه»[6] .

هذه اللفتة العلمية من عند القاهر الجرجاني الى دراسة النصوص تنقلنا الى مجال آخر يتجلى فيها التعمق الى مداخله النص وتفسيره من الداخل ، وملاحظه العلاقات المؤلفة للكلام ويمكننا أن نلاحظ العوامل الضرورية لدراسة النص دراسة نحوية فيما يلي :

أ - التأليف لا يعني جمع الكلم كيفما اتفق ، وانما يقضي تأليفها تناسقها وتجانسها وتلاحمها كما تتلاحم السدى واللحمة في النسيج وتتناسق ألوانه ويتناسب كل لون وما يجانسه ، كذلك الكلام «حتى يؤلف ضربا خاصا من التأليف» .

ب - توخي معاني النحو وذلك «أن تضع كلامك الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»[7] .

ج – الربط بين النص وقائله ، لأن كل كاتب أو شاعر له قصد يبغيه وهدف يسعى اليه ، وهذه العملية نفسية محضة أصبحت تعرف في عصرنا «بالمعاناة» .

د – مقارنة بين تأليفين في نص واحد فقد أخذ بيت أمرئ القيس كما ألفه صاحبه ثم عمد إلى فك علاقاته الأصلية وأزالها عن مراتبها التي كانت فيها فاستحالت من البيان الذي مدحه الله فقال : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان عمله البيان﴾[8] الى درجة الهذيان الذي لا معنى له . لزوال مبدأ التركيب والترتيب ، وتزاوج الألفاظ والمعاني في بنية واحدة متوخى فيها معاني النحو .

هـ – ومع هذا فان نظرية عبد القاهر الجرجاني في شرح النصوص تبقى قاصرة على البيت المفرد ، دون أن تكون له نظرة شاملة على النص الكامل . فقد أخذ أبياتا شعرية من هنا وهناك وبينّ أوجه الجمال فيها ، وآيات من سور مختلفة من القرآن وفسرها تفسيراً مفرداً بقطع النظر عن ما قبلها وما بعدها . فهو يأخذ الآية في منأى عن السياق العام للنص القرآني . والمكان وسبب النزول . هذا ما يجعل دراسة عبد القاهر تندرج في صلب الدراسات الجزئية .

II الدراسة العلمية في تراثنا العربي :

تهيب علماء اللسان العربي من دراسة النص القرآني وتحليله ، وتحفظوا أن يطلقوا عليه النص القرآني ، وأبَوْا إلا أن يصفوه بقولهم «الذكر» و «الوحي» و «الكتاب» و «التنزيل» وغيرها أما أن يقولوا نصا أدبيا أو لغويا فلم يفعلوا مع أن القرآن صريح في ذلك حيث يقول : ﴿لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[9]﴾ فقد قارن بين لسانيين : أعجمي وعربي . نعم كثيراً ما يقولون و «نص» على ذلك القرآن . أو «بنص» الحديث . وعرف عندهم ذلك «بالتنصيص» . ونسب الزركشي هذا التحفظ والاحتياط الى التورع فقال : «وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب والشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطاً لأنفسهم مع ادراكهم وتقدمهم[10] .

ويظهر لنا أن هذا التحفظ يعود في الأصل الى شروط المفسر وذلك بأن يتوفر المفسر على علم واسع وبخاصة دراسة كتاب سيبوية : «فجدير لمن تاقت نفسه الى علم التفسير ، وترقت الى التحقيق فيه والتحرير أن يعتكف على كتاب سيبوية ، فهو في هذا الفن المعول عليه ، والمستند في حل المشكلات إليه»[11] . مع أن كتاب سيبويه معدود مصدرا من مصادر علوم النحو واللغة والصرف لا من مصادر التفسير .

ويأبى الزركشي إلا أن يرد ذلك الى أن المفسر لابد أن يكون بحرا في العلوم فقال : «وقد كانت الصحابة رضي اللّه عنهم علماء ، كل منهم مخصوص بنوع من العلم كعلى رضي الله تعالى عنه بالقضاء ، وزيد بالفرائض ، ومعاذ بالحلال والحرام وأُبي بالقراءة ، فلم يسم أحدٌ منهم بحراً الا عبد الله بن عباس لا ختصاصه دونهم بالتفسير وعلم التأويل»[12] ثم يعرف لنا علم التفسير فيقول : «التفسير علم يعرف به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه ، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج الى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»[13] .

هذه النظرة الواسعة مرجعها الى التطور الذي حصل في العلوم الإسلامية واستقلال العلوم بعضها عن بعض وأصبح الفرق واضحاً بين علم اللغة وعلم الصرف وعلم النحو ، هذه التفرقة هي التي أماتت الدراسة الوصفية الجامعة لكل أصناف فنون العلم الواحد ، ففرقوا بين علم البلاغة والنحو فخصوا النحو بالتحليل النحوي الاعرابي ، وعلم البيان بالمعاني ، وهذا أكبر غلط اعتمده علماء العربية في العصور المتأخرة فحرف «إنّ تدل في النحو بأنه من النواسخ وعند علماء البيان بأنه حرف توكيد ، والحقيقة أن حرف «إنّ» يجب أن يدرس جملة من ثلاثة أوجه :

1) طبيعته : حرف ليس باسم ولا فعل .

2) وظيفته : توكيد مضمون الجملة الداخل عليها .

3) عمله : تدخل على جملة تامة مكوناتها مبتدأ وخبر فتنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها . ويندرج هذا العمل في التحليل للنصوص اللغوية . أما اذا انتقلنا الى درجة التبليغ والبيان فاننا نعتبر مستوى التخاطب وحال المخاطب ومبلغ علمه أو جهله بالموضوع وما قصة الفيلسوف العربي أبي اسحاق الكندي وأبي العباس المبرد النحوي بِسِرّفي هذا الموضوع .

ولقد تجلت هذه الدراسة العلمية مع أبي القاسم محمود ابن عمرو بن محمد بن عمر الزمخشري المتوفى 538هـ في كتبه وبخاصة تفسيره ، الكشاف : في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» هذا العالم الذي بلغ شأناً عظيماً بتفسيره ، ومعروف أنه من رجال «المعتزلة» الذين يذهبون الى أن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات ، فتناول النصوص القرآنية كما يتناول النصوص العربية الأخرى ، مستعملا عقله وفكره في التحليل والتفسير والتأويل ، ولا بأس أن نورد الفرق بين التفسير والتأويل من شرح ابن يعيش لمصنف الزمخشري الموسوم : «بالمفصل في علم العربية» . فقال : «الفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير الكشف عن المراد من اللفظ

سواء كان ذلك ظاهرا في المراد أو غير ظاهر . والتأويل انما هو صرف اللفظ عن الظاهر الى غيره مما يحتمله اللفظ . فاذا كل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تأويلا»[14] .

نرى أن هذا الفرق ضروري بين التفسير والتأويل ما دامت الندوة موقوفة على «التحليل والتفسير والتأويل» للنص العربي .

ولا بأس أن نستعرض نموذجاً بسيطاً من تفسير الزمخشري لندرك الدرجة التي بلغها الزمخشري في تحليل النصوص وتفسيرها وتأويلها وهي الطريقة التي نسعى أن نطورها في ضوء معطيات اللسانيات المعاصرة . يفسر النص القرآني التالي : «ألم ذلك الكتاب ، لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ان قوله ﴿ألم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها . و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لاريب فيه﴾ ثالثة ، و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة .

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا الى الثالثة والرابعة .

بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير اليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ... فكان تقريراً لجلة التحدي وشداً من أعضاده ، ثم نفى أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله لأنه لا كال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة .

وقيل لبعض العلماء : فيم لَذَّتُك ؟ فقال في حجة تتبختر اتضاحاً وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً .

ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رُتِّبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم «السري من نكته ذات جزالة» .

ففي الأول الحذفُ والرمز الى الغرض بألطف وجه وأرشقه وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف . وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكراً ، والايجاز في ذكر المتقين ، زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه وتبينا لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه»[15] .

هذا النموذج الكامل من التفسير يحي في الدارس ثلاثة أشياء ؛

1) تحديد الجمل وضبطها من أين تبدأ الجملة وأين تنتهي وما علاقتها بسابقتها ولا حقتها . ومن

ثم يتبين لنا الفرق بين الجملة والكلام في اصطلاح النحويين ، ويتصل هذا المبدأ بالتحليل النحوي .

2) تأليف الكلام من جمل متناسقة متعانقة آخذاً بعضها بعنق بعض ، هذه الحيوية هي التي يفتقر إليها الدرس النحوي وهي التي جسمها الزمخشري في تفسيره للنصوص القرآنية .

3) اذكاء روح التفكير والتعمق في دراسة النصوص دراسة نحوية لا يتخللها سأم ، ولا يتطرق إليها الملل الذي ينتاب الطلبة عادة في دراسة النصوص النحوية .

فاذا انتقلنا الى أبي حيان الأندلسي المتوفى 754هـ نجده يحذو حذو الزمخشري ، وينقل عنه ويستشهد بآرائه. ومما يمتاز به عن الزمخشري أنه بين منهجه في التفسير وطريقته التي سلكها فقال : «وترتيبي في هذا الكتاب» أني ابتدىء أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب واذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها . اذا كان لها سبب ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية ، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها متكلما على جليها وخفيها بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت - حتى أتكلم عليها مبديا ما فيها من غوامض الاعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان الخ»[16] .

يتضح لنا من هذه المنهجية أنها هي التي سادت في زمننا هذا مع فارق لابد من اعتباره وذلك أن أبا حيان واع لما يقول مدرك لمكنون القرآن - وأن الذين جاؤوا من بعده واقتدوا به أساؤوا الى منهجه ، واقتفوا أثره دون وعي ، واعتمدوا الحفظ مقياساً لتفسير النصوص القرآنية ، وباعدوا بينهم وبين الاجتهاد واعمال العقل فيما يعربون فلننظر الى أبي حيان كيف يتعمق في شرح المسند والمسند إليه في فعل «كتب ، من قوله تعالى : ﴿كتب عليكم الصيام﴾ . «وبناء كتب للمفعول في هذه المكتوبات الثلاثة وحذف الفاعل للعلم به إذ هو الله تعالى ، لأنها مشاق صعبة على المكلف فناسب أن لا تنسب الى الله تعالى . وان كان الله تعالى هو الذي كتبها . وحين يكون المكتوب للمكلف فيه راحة واستبشار يبني الفعل للفاعل كما قال تعالى : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ . ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ . ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وهذا من لطيف علم البيان»[17] .

هكذا يربط أبو حيان الأندلسي بين بنية الكلمة ومعناها البلاغي وهذا أقصى ما نسعى الى تحسيس الدارسين به ليدركوا الترابط بين اللفظ والمعنى ، وقد مثل لهما ابن رشيق في كتابه «العمدة» بالعلاقة التي تربط بين الجسم والروح ، فهما متلاحمان يستحيل الفصل بينهما .

ولنختم هذه الأصالة في دراسة النصوص القرآنية بالعالم الجليل أمين الاسلام أبي علي الفضل الطبرسي المتوفى سنة 543 هجرية في تفسيره الشهير ، «معجم البيان» الذي تجلت فيه عبقريته الفذة ، في تحليل النصوص القرآنية بمنهجية علمية سبق بها من جاء بعده وهي تضاهي نفس المنهجية المعاصرة المتبعة في دراسة النصوص اللغوية في زمننا هذا . فهو يأخذ الآية أو الآيات مرقمة بأرقامها حتى يسهل على الدارس مراجعتها في الأصل ﴿القرآن﴾ بادىء ذي بدء ثم يثني بالمباحث التي يبحثها عنواناً فعنواناً مقسماً إياها على سبع مراحل هي :

1 – القراءات ناسباً كل قراءة إلى أصحابها ، وقد اعتمد ثلاثة مدارس هي :

أ – مدرسة المدينة ، ويسميها المدني .

ب – مدرسة الكوفة ، ويسميها الكوفي .

ج – مدرسة الشام ، ويسميها الشامي .

2 – الحجج والبراهين .

3 – شرح المفردات ذات المعنى الغريب ويسميها «اللغة» .

4 – النظم وهو توخي معاني النحو .

5 – أسباب النزول .

6 – اعراب بعض التراكيب التي تتجلى فيها لطائف النحو .

7 – المعنى العام أو التفسير .

وقد التزم بهذه المنهجية في تفسيره القرآن مبيناً معنى التفسير وهو «كشف المراد عن اللفظ . والتأويل رد أحد المحتملين الى ما يطابق الظاهر . والتفسير البيان .

وقال أبو العباس المبرد : التفسير والتأويل والمعنى واحد .

وقيل :» السفر كشف المغطى ، والتأويل انتهاء الشيء ومصيره وما يؤول اليه أمره ، والمعنى مأخوذ من عنيت فلاناً أي قصدته ، فكان المعنى من قولهم عنى بذلك . قصد بالكلام كذا»[18] .

ينطلق أبو على الفضل الطبرسي بهذه الروح العلمية التي تتصل بندوتنا التي هي تحت عنوان «ندوة تحليل النص بين الوصف والتفسير والتأويل» نلمس هذه المواصفات الثلاث في

تفسيره . فعرضه النص مع وصفه بالقراءات المختلفة بعيداً عن الأحكام المسبقة ، والمعايير المتبعة ، بموضوعية بعيدة عن الذاتية ، هذه الطريقة ترتضيها اللسانيات العامة عن قناعة لأنها تعتمد الوصف دون المعيار . ثم يلجأ الى الدعائم الأخرى كالمناسبة بترابط التراكيب ونظمها في سلك واحد فاعرابها ، ويرى «أن الاعراب هو أجل علوم القرآن ، إليه يفتقر كل بيان ، وهو الذي يفتح من الألفاظ الاغلاق ، ويستخرج من فحواها الاعلاق ، اذ الأغراض كامنة فيها ، فيكون هو المثير لها ، والباحث ، والمشير إليها . وهو معيار الكلام الذي لا يبين نقصانه ورجحانه حتى يعرض عليه ، ومقياسه الذي لا يميز بين سقيمه ومستقيمه حتى يرجع اليه . وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[19] .

واضح أن الاعراب معناه هنا البيان والوضوح كما يرى ابن يعيش في شرح «المفصل» للزمخشري حيث يقول : «اعلم أن الإعراب في اللغة البيان يقال أعرب عن حاجته اذا أبان عنها ومنه قوله عليه السلام : «الثيب تعرب عن نفسها» وهو مشتق من لفظ العرب ومعناه لما يعزى إليهم من الفصاحة»[20] .

ويظهر لناجليا ما قلناه في اعرابه المجسم في النصوص القرآنية ولا بأس أن نورد نموذجاً لذلك . يقول في «شيخاً» من قوله تعالى : ﴿أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلي شيخاً﴾[21] ، وشيخا منصوب على الحال ، قال الزجاج : الحال ها هنا نصبها من لطيف النحو ، وذلك أنك اذا قلت : هذا زيد قائماً فان كنت تقصد أن تخبر من لا يعرف زيداً ، أنه زيد لم يجز أن تقول هذا زيد قائماً لأنه يكون زيداً ما دام قائماً ، فاذا زال عن القيام فليس بزيد ، وانما تقول للذي يعرف زيداً ، «هذا زيد قائماً ، فيعمل في الحال التنبيه ، والمعنى : أنتبه لزيد في حال قيامه أو أشير لك الى زيد في حال قيامه . لأن هذا «اشارة الى ما حضر . وقال غيره إن شئت جعلت العامل فيه معنى التنبيه ، وان شئت جعلت العامل فيه معنى الاشارة ، وإن شئت أعلمت فيه مجموعها ، وهكذا ما جرى مجراه»[22] .

ان هذا الشلال المتدفق أصابه الوهن ، وتعطل هذا الفكر الخلاق عن العطاء والاجتهاد ، وابتعد عن الأصالة النابعة من خصائص الحضارة الإسلامية العربية التي تستمد دعائمها من القرآن الكريم (الذي هو تنزيل من حكيم حميد) وتحجر الفكر العربي وانتشرت فكرة التقليد ، واتخذ الدارسون مبدأ «من قلد عالما لقى الله سالما» . وحددوا توقيف الاجتهاد اللغوي في القرن الرابع كما ذكر ابن جني وتركوا الأخذ عن أهل الوبر كما تركوه من قبل عن أهل المدر[23] وسدوا باب الاجتهاد في الفقه ، وابتعدوا عن النصوص القرآنية وقالوا المقولة الاسرائيلية المنسوبة إلى الأثر

النبوي : «صوابه خطأ ، وخطاه كفر» أشار الى هذا القول الطبرسي بقوله : «وروت العامة عن النبي ﷺ أنه قال : «من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ»[24] . وهكذا يكون راوي الحديث العامة وليست العلماء أو الصحابة . فجانبوا النصوص القرآنية واعتمدوا المنامات الصوفية مرجعاً لهم يستمدون منها اجتهادهم فكثرت كتب تفسير المنام . أما الكتب النحوية فقد اعتمدت الأرجوزات النظمية كألفية ابن مالك ، والمختصرات كالأجرومية ، و«الجزرية» في مخارج الحروف . واعتبر الحفظ مقياساً ، لسعة العلم ومات الفكر والرأي . حتى هبت رياح الأحياء مع محمد عبدو الذي أدخل تدريس كتاب «دلائل الاعجاز» لعبد القاهر الجرجاني في جامع الأزهر ، وبذلك حرك بعض المتنورين من علماء الأزهر وتجسم هذا العمل في تلميذه محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» فالطنطاوي في تفسيره للقرآن أيضاً . لكن سرعان ما توقف هذا الفكر الأصيل لاشتغال الكتاب بما يسمى بعالم الأدب العالمي الذي تأثر بالتيارات الأجنبية المعاصرة ، بعيداً عن الأصالة . والفرق بين الاتجاهين : أن الأول يعتبر اتجاهه امتداداً للأصالة العربية الإسلامية التي تضرب في أعماق التاريخ والثاني يعتبر اتجاهه مسايرا للتطورات المعاصرة ومن هنا نشأ الصراع بين القديم والجديد .

كيف يدرس النص النحوي حالياً
بين الدراسة النحوية والدراسة الأدبية

لئن كان الدرس الأدبي قد عرف تطوراً حقيقياً منذ أن ظهرت كتابات الدكتور طه حسين ومؤلفاته التي تناولت بالنقد والتجريح الطرق المتبعة في مصر بصفة عامة . وبجامع الأزهر بصفة خاصة . هذه الثورة التي هزت الأفكار الجامدة ، وحركت الهمم الراقدة ، فراحت تدافع بكل ما تملك من معدات أدبية وثقافية وعلمية . أتت أكلها ، وأصبح الدكتور طه حسين نفسه من الأقدمين[25] ، ولم يأت بجديد سوى ما قاله الأولون ، فإن الدرس اللغوي لم يمسه أحد ولم يقترب منه عالم من علماء اللسان العربي باستثناء تلك اللمحات التي أشرنا إليها سابقاً مع محمد عبدو وتلميذه محمد رشد رضا . وهذا لأسباب كثيرة منها :

أ) فقدان المنهج :

ان دراسة النص اللغوي في ثانوياتنا وجامعاتنا لا يزال يبحث عن طريقة مثلى ، فالمقررات نجدها تقرر نصوصاً لغوية نحوية ، ولكن لا أحد من المدرسين يضارع الآخر في تدريسه ، الا أن الطابع العام الذي يقرب بينهم هو الاهتمام بدراسة المفردات الغريبة دراسة

جامدة ميتة بعيدة عن التطور اللغوي الذي يعتري الكلم المفردة ويحول معانيها من حالة الى حالة أخرى حسب ما يقتضيه المقام والسياق العام للنص اللغوي ، والاكتفاء بالاعراب كما تمثله القرون التي اصطلح على تسميتها بعصور الانحطاط .

فكم من عالم متبحر في اللسان العربي المبين رأيناه يجول ويصول بمعارفه الواسعة . ولا يملك طريقة يبلغ بها ما يملك من معارف الى الطلبة . وكم من دارس لمناهج البحث والتدريس لا يملك المعارف التي يملكها العالم المتبحر الفاقد للمنهج وهكذا ضاع الدرس بين فاقد للمنهج عالم بالعلوم وبين عالم بالمناهج فاقد للمعارف .

ب) التفرقة بين الشكل والمضمون :

منذ أن ظهر الفلاسفة وفرقوا بين اللفظ والمعنى ، وخصوا المناطقة بالبحث عن المعاني ، والنحاة بالاهتمام بالألفاظ فسدت الدراسات النحوية واللغوية . وطغى الشكل على المضمون عند بعض النحاة . فقد جاء في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي مناظرة جديرة بالرجوع إليها بين أبي سعيد النحوي وأبي بشر المنطقي ما نصه : «ان المنطق يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ ، فان مر المنطقي بالنحو فبالعرض ، وان عثر النحوي بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضع من المعنى»[26] .

هذه المقولة خطيرة جدا على مسار الدرس النحوي ، وما ترتب عنها أخطر لأنها مدتنا بجيل مشوه مبتور ، يزعم أن همه الوحيد فهم الأفكار مجردة عن أصدافها اللغوية وبعيدة عن نسيجها التركيبي النحوي ، واستبدت هذه المقولة بأفكار الشباب فما دام اللفظ وضيعا ، والمعنى رفيعاً ، فلم الاهتمام بالوضيع وترك الرفيع ، واعتمدها كثير من أساتذتنا الشباب حجة بقولهم هذا كلام صحيح من الجانب النحوي أما المعنى فمن اختصاص علماء البيان وعلماء الفلسفة والمنطق ، وثقل الدرس النحوي بالقواعد النحوية وأهدرت لطائفه ، وتلاشت أسراره التي هي سر اعجاز القرآن لجهابذة العرب وفصحائها .

فالاعراب الذي كان يعني البيان أصبح يعني تغيير أواخر الكلم بحسب العوامل الداخلة عليه .

ج) الاهتمام بالعامل :

اهتم علماء اللسان العربي المبين عند نشأة النحو بالفائدة الحاصلة من التركيب ولم يعيروا اهتماما للعامل لأنه من متممات المعنى ، ومن مقتضيات العلائق التركيبية حتى أنهم اذا وجدوا تركيباً سلبياً ولم يتضمن فائدة قالوا فيه : «هذا من باب السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ومحمد

نبينا ، والله ربنا»[27] فالتركيب سليم ، والمضمون مبتذل يعرفه العام والخاص أما علماء عصرنا فقد اهتموا بالعامل ، وأحدثوا تنازعا عن العامل في المبتدأ والخبر ما هو ؟ هل الابتداء ؟ أو الخبر ؟ واذا كان الابتداء فما العامل في الخبر ؟ وقيل تعاملاً معاً بمعنى عمل كل واحد في الآخر. وقيل العامل في المبتدأ الابتداء والعامل في الخبر المبتدأ . وهكذا تاه علماء الدرس النحوي في متاهات لا مسوغ لها عند علماء أصول النحو العربي .

والخلاصة أن الدرس النحوي في عصرنا لا يزال يبحث عن منهجية علمية ، تهديه إلى سبيل الرشاد وهي التي نختصرها في مقترحنا الآتي :

III المنهجية العلمية :

عرفنا من استعراضنا التاريخي لدراسة النصوص المختلفة أن مصطلحي التفسير والتأويل لم يظهرا الا عند علماء تفسير القرآن الكريم ، وأن هؤلاء العلماء تحرجوا أن يسموا الآيات القرآنية بالنصوص القرآنية تأدباً منهم وتقديسا للذكر الحكيم . بيد أن النتائج التي يصل إليها الباحث بعد الاستقراء والاستقصاء هي توفر النظريات الهادفة ، والذهنيات العلمية عند هؤلاء المفسرين غير أنها مبعثرة ها هنا وها هناك لا يجمعها منهج واحد ، ولا ترطبها طريقة جامعة . وهذا ما ندبنا أنفسنا لانجازه بعون الله وتوفيقه . ونعمل على تجسيمه في الخطوات التالية .

أولاً - في الأصوات :

ان العلاقة بين الأصوات اللغوية (فونيات) وبين الأمة التي تستهلك تلك الأصوات وطيدة جدا . تتصل بجهازها الصوتي ، و بحاسة السمع عندها ، وبمزاجها الخلقي ، لذلك تكثر حروف في لغة ما وتقل في لغة أخرى . ولقد أدرك سر الكثرة والقلة علماء التفسير فقد جاء في تفسير الزمخشري ما نصه «ومما يدل على أنه (أي القرآن) تعمد بالذكر حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين»[28] .

ومن هنا اهتم علماء التجويد وعلماء النحو بعدد حروف المعجم العربي وبمخارج هذه الحروف وصفاتها ، وقسموا هذه الصفات الى مجهورة ومهموسة ، وشديدة ورخوة وخصوا حروف اللين الثلاثة ببحوث خاصة ، وقد أثبتت اللسانيات العامة صحة هذه النظرية . فتحليل النصوص ينطلق من الفونيم المسمى عند العرف بالحرف . وقد خص سيبوية للنظام الصوتي عند العرب بابا بأكمله ولما وصل الى الأعجمي قارن بينه وبين النظام الصوتي العربي ولاحظ الحروف

التي تفتقر إليها أبجدية النظام العربي . وقدم طريقة حسنى لتعريب الأعجمي ، فما أحوجنا لهذه المنهجية في عصرنا هذا الذي تغزونا فيه يومياً المصطلحات الأجنبية !

هناك قضايا نحوية تعسر على علماء النحو العربي تحليلها لأنها جاءت مخالفة للقياس المعتبر عندهم من ذلك قول العرب «هذا جُحرُ ضب خربٍ و«هذا ماء شنٌّ باردٍ» فعظم عليهم رفع «خرب وبارد» لأنها نعتان لمرفوعين فقالوا وقع الجر للمجاورة بين صوتين متجانسين . والحقيقة وهي مبسوطة في كتب اللغة أن الانتقال من الجر الى الرفع صعب جداً . لذلك روعى فيهما تجانس المصوتين (أي الحركتين) الحركة السابقة واللاحقة بين كلمتين امتزجتا وأصبحتا كالكلمة الواحدة .

وهذه الظاهرة كثيرة في عصرنا هذا كثرة لا تحصى ، منها على سبيل المثال لا الحصر : أذاعت وكالة الأنباء المغربية أو الجزائرية أو المصرية أو الفرنسية . وهنا اما أن نراعي القاعدة النحوية فنرفع النعت تبعا للمنعوت وهو «الوكالة» أونجره تبعاً للمجاورة والمجانسة والتناغم بين الصوتين . ورأينا أن نوقف عليه بالسكون تفادياً للنشوز بين الحركتين السابقة واللاحقة وسلامة للنطق العربي .

ثانياً – المشاكلة :

وتسمى أيضاً بالحمل ويعرفونه بأنه حمل كلام على كلام لا لعلة سوى المماثلة والمشاكلة فيقولون في باب الفعل الثلاثي المثالي المبدوء بالواو مثل وعد أنه يحذف منه فاء الكلمة في المضارع فقالوا في المضارع المسند الى الغائب هو يعد بدل «☆ يوعد» وذلك لأن الواو وقعت بين الياء والكسرة فثقل النطق بالواو الساكنة التي هي فاء الكلمة وحملوا عليها باقي الباب حتى يطرد ويتماثل في نسق واحد ، وهي علة صوتية محضة مرجعها الى المشاكلة والمماثلة .

وقد اتسعوا في هذا الباب الى الجمل ، واستخدموا المشاكلة في تفسير النصوص القرآنية ، فقالوا : ﴿وما رميت اذ رمت ولكن الله رمى﴾ تعالى الله أن يوصف بالرمي . وقالوا أيضاً ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ تنزه الله أن يكون مكاراً . ولكن للمشاكلة . ومنها حزب الله وحزب الشيطان . لما ذكر حزب الشيطان ماثله بحزب الله .

ثالثاً – مضاهاة الصوت للمعنى :

وقد نبغ في هذا المضمار ابن جني فقال : «فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس

حروفه أصوات الأفعال التي عبر عنهـا ، ألا تراهم قـالوا : قضم في اليـابس ، وخضم في الرطب ، وذلك لقوة القـاف وضعف الخـاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف ، وكذلك قوله : «صر الجندب ، فكرروا الراء لما هنـاك من استطـالـة صوتـه ، وسموا الغراب غاق حكاية لصوته ، والبط بطا حكاية (لصوته ، وقـالوا «قـط الشيء» اذا قطعـه عرضـا و «قده» اذا قطعه طولاً ، «وذلك لأن مقطع الطاء أقصر مدة من مقطع الدال . وكذلك قالوا ، «مـد الحبل» و «مت اليـه بقرابـة» فجعلوا الـدال - لأنهـا مجهورة - لمـا فيـه علاج وجعلوا التـاء - لأنها مهموسة - لما لا علاج فيه وقـالوا : الخـذأ بـالهمزة - في ضعف النفس - والخـذا - غير مهموز - في استرخاء الأذن ، يقال : اذن خذ واء - آذان خـذو - ومعلوم أن الواو لا تبلغ قوة الهمزة ، فجعلوها - لضعفها - للعيب في الأذن والهمزة - لقوتهـا - للعيب في النفس من حيث كان عيب النفس أفحش من عيب الأذن»[29] .

رابعاً - درجة التبليغ :

يرتفع ابن جنى الى درجـة التبليـغ وأثر الأصـوات على النفـوس في بـاب «تصـاقب الألفـاظ لتصاقب المعاني «ويصفه بقوله «هذا باب غَوْرٌ من العربية ، لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به ، وأكثر كلام العرب عليه وان كان غفلاً مسهواً عنه»[30] .

وقد ارتضت اللسانيات الحديثة هذه الدراسة عن قنـاعـة وشجعتهـا ، وأغنتهـا بـالتطبيق في النصوص المختلفة . وقد أحس ابن جني بـذلـك فهو يقول في هـذا الصـدد : «من ذلـك قول الله سبحانه : ﴿ألم تر أنا أرسلنـا الشيـاطين على الكافرن تؤزهم أزا﴾ والهمزة أخت الهـاء ، فتقـارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز لأنك قد تهز ما لا بال له ، كالجذع ، وساق الشجر ونحو ذلك»[31] .

ولا بأس أن نطبق هـذه النظرة على نص من القرآن فنـأخـذ نصـاً قصيراً من القرآن ولتكن الآية التالية : ﴿قال الـذين حق عليهم القول : ربنـا هؤلاء الـذين أغوينـا أغوينـاهم كما غوينـا تبرأنا اليك مما كانوا يعبدون﴾ ، فنقول هذه الآية هي :

تعبير عن موقف حرج ، فالقوم في مأزق ، فاستعملوا النداء ليبدوا أصواتهم عـاليـة ، ولكنهم اختنقوا بـالبكاء فحـذفوا «حرف النـداء ، «يـا» استعجـالاً لمطلبهم ، ثم لاذوا بـالاشـارة للقريب «هؤلاء» ثم تمسكـوا بـالمـوصـول الـذي يفتقر الى صلـة تكـمل معنـاه «الـذين» ثم تراكمت الأفعـال المشحونة بحرف الغين ﴿أغوينا أغويناهم كما غوينـا﴾ تعبيراً عن تـداخل الأصوات بعضهـا ببعض

كأنها أصوات الببغاء ، وأخيرا ينتهي الموقف بالبراءة مما كانوا يعبدون . تجعلنا هذه البراءة نشعر كأنها ختمت بالنداء المتضمن للدعاء «يا ربنا نبرأ إليك من هؤلاء» .

وهكذا يرسم لنا حرف الغين هذا المشهد وهذه الغوغاء التي أحدثها الموقف الحرج ، ثم نتوسع في أسرار النداء لأنه عبارة عن حذف جملة تامة من فعل وفاعل وندخل هذا العمل في باب الاقتصاد اللغوي عند علماء اللسانيات وبالخفة والثقل عند الأقدمين وهي من الجمل الانشائية التي لا تحتمل لا صدقاً ولا كذباً لأنها أنشئت انشاء ، واخترعت اختراعاً : ويحسن بنا أن نستعرض الأحوال التي تعتري النداء ودرجاته القريبة والبعيدة والمتوسطة والمواقف التي يستعمل فيها ، ومن ثمة نصل الى الاغاثة والندبة والتعجب كقول القائل : «ياللجمال ! ويا للبهاء ويا للروعة الخ ... وما قيل في النداء يقال في اسم الاشارة واسم الموصول الموسومين بالمعارف المبهمة وشرح هذا ، التناقض بين التعريف والابهام في أمثلة من المشاهد المعاشة . وبهذا يصبح النص عبارة عن واقع حي نشاهده صباح مساء .

خامساً - الكلمة المفردة :

يتجلى هذا في الأسماء والأفعال وتمتاز الحروف عليها وذلك في اختيار مواقعها للدلالة على معانيها نجد في سورة «المؤمنون» ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ ... ثم يستمر وصف المؤمنين الى و﴿الذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ .. ونجد في سورة الماعون : ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ .

هذه الدقة في استعمال هذه الحروف الثلاثة)في / على / عن) تعود بالدرجة الأولى الى المواقع التي تلى (صلاتهم) خاشعون في الأولى) ويحافظون في الثانية ، وساهون في الأخيرة . فالخشوع يتطلب الهدوء والإطمئنان وكأن المصلي في فراشه في راحة ولذا كان يقول الرسول ﷺ : «أرحنا بها يا بلال» والمحافظة تتطلب الاهتمام بالصلاة والاتيان بها في أوقاتها وكأن المصلي يعتلي الزمن ويتحكم فيه مثل ما يتحكم الفارس في حصانه . والسهو يفيد التجاوز وكأن صاحبه في سهو مرسل فاستحق الويل والهلاك .

وقد تعرض لهذا الأسرار اللطيفة ابن الأثير لحروف المعاني في كتابه : «المثل السائر» . نورد منه النموذج التالي : «فما ورد عنه قوله تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أواياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ألا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرف الجر هنا فانه انما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل

على فرس جواد يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يـدري أين يتوجـه وهـذا معنى دقيق قلـما يراعي مثلـه في الكلام ، وكثيراً مـا سمعت اذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور ، فيقول له : أنت على ضلالـك القـديم كما أعهدك ، فيأتي بعلى في موضع في ، وان كان هذا جـائزا . الا أن استعمال «في» ههنـا أولى لمـا أشرنـا إليـه ، ألا ترى الى قولـه تعـالى : «في سـورة يـوسف» ﴿قـالـوا تـالله انـك لفي ضـلالـك القديم﴾[32] .

سادساً : في التراكيب :

ان دراسـة التراكيب النحـويـة في النصـوص القرآنيـة بلغت منتهى الغـايــة وبــالأخص في المؤلفات التي تناولت اعجاز القرآن ككتـاب البقلاني في اعجـاز القرآن ، ودلائل الاعجـاز لعبـد القاهر الجرجاني وثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القـاهر الجرجـاني ، وكل هذه المؤلفات تندرج في علم الدلالـة الـذي هو علم جـديـد اعتمـده اللسـانيون وطوروه على ضوء الدراسات اللسانية الحديثة . وكان علم النحو مـدار البحث وقـد أقـاموا مفـاضلات بين المقولات التي سبقت القرآن وما ورد في نفس التراكيب لكن بتـأليف يختلف كل الاختلاف عن التراكيب المألوفة عند العرب ، ولا بأس أن نستعرض هذا النموذج الذي تعرض لـه جل المفسرين والمحللين للسان العربي ، وهي المقارنة بين قول العرب «القتل» أنفى للقتل» وبين مـا جـاء في هـذا المعنى من القرآن ﴿ولكم في القصـاص حيـاة يـا أولى الألبـاب﴾ ونكتفي بمـا جـاء في تفسير أبي حيـان الأندلسي في البحر المحيط . حيث يقول : «وقـال الزمخشري : ﴿ولكم في القصـاص حيـاة﴾ كلام فصيح لمـا فيـه من الغرابـة . وهو أن القصـاص قتل وتفويت للحيـاة وقـد جعل مكانـا وظرفـا للحياة . ومن إصابـة محز البلاغيـة تعريف القصـاص ، وتنكير الحيـاة . لأن المعنى ولكم في هـذا الجنس من الحكم الـذي هو القصـاص حيـاة عظيـمـة ، أو نـوع من الحيـاة وهـو الحيـاة الحـاصلـة بـالارتـداع عن القتل لوقوع العلم بـالاقتصـاص من القـاتـل انتهى كـلامـه . وقـالت العرب فيما يقرب من هٰـذا المعنى «القتل أوقى للقتل وقـالوا أنفى للقتل وقـالوا أكف للقتل . «وذكر العلمـاء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه :

أحدها : أن ظاهر قول العرب يقتضي كون وجود الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال .

الثاني : تكرير لفظ القتل في جملة واحدة .

الثالث : الاقتصار على أن القتل هو أنفى للقتل .

الرابع : أن القتل ظلماً هو قتل ، ولا يكون نافياً للقتل وقد اندرج في قولهم : «القتل أنفى للقتل . والآية الكريمة بخلاف ذلك» :

أما في الوجه الأول ففيه أن نوعا من القتل وهو القصاص سبب لنوع من الحياة لا للمطلق الحياة ، واذا كان على حذف مضاف : أي ولكم في شرع القصاص ، اتضح كون شرع القصاص سبباً للحياة .

وأما في الوجه الثاني فظاهر لعذوبة الألفاظ وحسن التركيب وعدم الاحتياج الى تقدير الحذف ، لأن في كلام العرب كما قلنا تكراراً للفظ والحذف . إذ أنفى أو أكف أو أوقى ، هو أفعل تفضيل فلابد من تقدير المفضل عليه «أنفى للقل من ترك القتل» .

وأما في الوجه الثالث ، فالقصاص أعم من القتل لأن القصاص يكون في نفس وفي غير نفس والقتل لا يكون الا في النفس ، فالآية أعم وأنفع في تحصيل الحياة .

وأما في الوجه الرابع فلأن القصاص مشعر بالاستحقاق فترتب على مشروعيته وجود الحياة ، ثم الآية المكرمة فيها مقابلة للقصاص بالحياة ، فهي من مقابلة الشيء بضده ، وهو نوع من البيان يسمى الطباق ، وهو شبه قوله تعالى : ﴿وأنه أمات وأحيا﴾ . وهذه الجملة مبتدأ وخبر . «وفي القصاص» متعلق بما تعلق به قوله : «لكم» وهو في موضع الخبر ، وتقديم هذا الخبر مسوغ لجواز الابتداء بالنكرة ، وتفسير المعنى : أنه يكون لكم في القصاص حياة . ونبه بالنداء نداء ذوي العقول والبصائر على المصلحة العامة ، إذ هي مشروعية القصاص ، إذ لا يعرف كنه محصولها الا أولو الألباب ، القابلون لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه[33] .

الملاحظ في هذه الدراسة هو انصباب المفسر على ذات النص ، ومكنوناته الأساسية وتحليلها تحليلاً نحوياً مبيناً أوجه التفاضل بين النصين ، كالتعريف والتنكير والتقديم والتأخير وعذوبة الألفاظ وخشونتها (قتل = قصاص) وعموم اللفظ وخصوصيته في الدلالة ، ومغزى النداء ولمن يوجه وكراهية الحذف (أفعل التفصيل) لأنه يحوجنا الى التقدير وعدم التقدير أولى من التقدير .

وجمال المقابلة بين القصاص والحياة ورداءة تكرار لفظة (القتل) في جملة واحدة ، يرفضه السمع ويتقزز منه .

هذه الطريقة المثلى التي ينبغي ترسيخها في تحليل النصوص وتفسيرها وتأويلها ، وبهذا العمل نكون قد قدمنا للنصوص النحوية منهجاً سليماً ، وعملاً هادفاً ، وللدارس طريقة تضعه

رأساً في صلب الموضوع ليحلله من الداخل كما يحلل الكيمائي مادته في المخبر ليبين عناصرها الأولى المكونة لها في الأساس ، هذا هو هدفنا من دراسة النصوص اللغوية .

وهذا نص ثان من كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني نورده فيما يلي على طوله :

«روى عن الأصمعي أنه قال : كنت أسير مع أبي عمر وبن العلاء ، وخلف الأحمر ، وكانا يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الاعظام . ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفا وأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال هي التي بلغتكم ، قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا ، فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبي قبل الهجير   إن ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها . فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان «ان ذاك النجاح في التبكير» بكراً . فالنجاح في البكير كان أحسن فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية . فقلت إن ذلك النجاح في التبكير : كما تقول الأعراب البدويون ولو قلت «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين . ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة . قال : فقام خلف فقبل بين عينيه . فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار الا للطف المعنى في ذلك وخفائه ؟

واعلم أن من شأن «ان» اذا جاء على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا . وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً ، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ، مقطوعاً موصولا معا . أفلا ترى أنك لو أسقطت «إن» من قوله : إنّ ذاك النجاح في التبكير : لم تر الكلام يلتئم ، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول : بكرا صاحبي قبل الهجير ، فذاك النجاح في التبكير ومثله قول بعض العرب :

غنها وهي لك الفداء   إن غناء الابل الحداء

فانظر الى قوله : «ان غناء الابل الحداء» . والى ملاءمته الكلام قبله ، وحسن تثبيته به ، والى حسن تعطف الكلام الأول عليه . ثم انظر اذا تركت «إن» فقلت . فغنها وهي لك الفداء ، غناء الابل الحداء : كيف تكون الصورة ؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر ، وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك ، حتى لا تجد حيلة في ائتلافهما ؟ حتى تجتلب لهما الفاء . فتقول : فغنها وهي لك الفداء . فغناء الابل الحداء . ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان وأن قد ذهبت الأنسة التي كنت تجد والحسن الذي كنت ترى»(34) .

هذا النص غني عن التعليق فهو يمزج بين النظري والتطبيق فالتعاليل والمقارنات تتصل بالجانب النظري ، وما اتصل بإن وموقعها ، وتعويضها بالفاء يتصل بالتحليل النحوي ، وكذا اتصال «ان» بما قبلها وما بعدها يتعلق بالتأليف الذي يسميه عبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الاعجاز» بالنظم الذي هو توخي معاني النحو .

ونضيف لهما درجة التبليغ ، فمن خصائص «ان» أنها تدخل على جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر ، فتغير بنيتها من حالة الى حالة أخرى . وتعزز تلك الجملة بالتوكيد الذي يحصل لمضون الجملة في الكل . فتتغير الجملة من حالة الابتداء الى حالة التأكيد بالاستئناف ، بينما الفاء لا تفيد الا الربط بين الجملتين أو اللفظتين مع مراعاة الترتيب والتعقيب وهذه كلها قضايا نحوية تدرس في كتب النحو .

بيد أن الفصل بين علوم اللسان العربي في الدراسة أفقد النصوص حلاوتها التي أقرها الخطابي في رسالته «اعجاز القرآن» . فقال : «وقد يخفى سببه – اعجاز القرآن – عند البحث ، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة . قالوا وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس ، لا يوجد مثلها لغيره منه»[35] .

سابعاً : الوقف :

كثيرا ما عيبت العربية بخلوها من الفواصل والتنقيط واشارات الاستفهام والتعجب وعلامات حذف الكلم ، والمطات ويقارن قراؤنا الأفاضل هذا بغناء اللغات الأجنبية بذلك كالفرنسية التي تعتمد النبر والوقف عند النقطة ، والتنفس عند الفاصلة تنفساً خفيفاً . والحقيقة أن النص القرآني قتل درساً في هذا الجانب . وظهرت مؤلفات لا تحصى في هذا الاتجاه . ولئن كان المغاربة يتلون القرآن بالوقف ، فان المشارقة ابتداء من شرق الجزائر يتلون القرآن «بالمحمول» فلا يلتزمون الوقف كما هو مبين في المصاحف ، ويقفون كيما اتفق ، وهذا منهى عنه شرعا «فقد روى عدي بن حاتم أنه أسلم رجلان على عهد رسول الله ﷺ : فتشهد أحدهما قائلا : أشهد أنه من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما . ثم توقف عن الكلام فقال له الرسول ﷺ : قم واذهب بئس الخطيب أنت»[36] .

وقد أجتهد علماء القراءات في تحديد الوقف وقسموه الى أربع مراتب «تام مختار ، وكافٍ جائز ، وصالح مفهوم وقبيح متروك» .

هذا في القرآن أما في غيره من نصوص العربية فقد تناوله علماء النحو أنفسهم فقد عقد

الزمخشري بابا برمته للوقف في كتابه «المفصل في علم العربية» فتوسع وأفاد ، وبين طرائق الوقف في الحركات الثلاث وكيف تكون . وهذا معين على فهم النصوص نحويا كما جاء في خاتمة محقق كتاب «المكتفى في الوقف والابتدا» ما يلي : «فمن خلال هذه الجولة التي قمنا بها من تحقيق كتاب المكتفى ، واقامة الدراسة عليه ، نؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن نشوء النحو لم يكن **لحفظ النصوص وصون اللسان من اللحن فقط** ، وانما لغاية أبعد وهي **فهم النصوص ، واستنباط الأحكام التشريعية منها على أساس القواعد النحوية**»[37] .

ونؤكد أن هذا الخلل لا يعود الى العربية ، وانما للطرق المتبعة في مدرسي العربية ، الذين لا يقيمون اهتماماً للفصل والوصل لكثرة حروف العطف في اللسان العربي ، وأخذ هذه المناهج لاحق عن سابق .

لذا يتوجب علينا أن نتثبت من ارساء أسس الوقف لتيسر لنا فهم النصوص ، ونعتني بتعليها أبناءنا منذ المراحل الأولى للتعليم أما الطلبة المتقدمون فلا عذر لهم لأن هذا من تمام الفهم السليم .

ثامناً : المجاز وأثره في أداء المعاني :

ظلت الدراسة النحوية وصفية محضة ، وشمولية ، تتناول كل علوم اللسان العربي ، وظهرت مؤلفات كثيرة بعناوين مشوقة مثل «معاني القرآن «للفراء» و«مجاز القرآن» لابي عبيدة و«غريب القرآن» لابن قتيبة ، كل هذه المؤلفات تدرس النحو ، وفي هذا الاطار العام يستعرضون القضايا التي اختص بها فيا بعد ما يسمى بعلوم البلاغة (علم البيان – علم المعاني ،. علم البديع) كالحقيقة والمجاز والأمثال والكناية والتمثيل والاستعارة ، والتورية . وظل الأمر هكذا الى أن حاول عبد القاهر الجرجاني الذي فصل في القضية وأثبت أن التراكيب النحوية ومعانيها كل لا يتجزأ ، لكن هناك درجات في الأداء ، فقال : «قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزية وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة»[38] .

ويرجع الامام عبد القاهر كل ذلك الى التأليف النحوي فينتقد أولئك الذين يكتفون بمجرد تقرير الاستعارة فيقول : «ومن عجيب ذلك أنك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى : ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ ، لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف الا إليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها . هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم وليس الأمر على ذلك ، ولا

هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة . ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل الى الشيء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذي الفعل إليه في المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ، وذلك أنا نعلم ان اشتعل للشيب في المعنى وأن كان هو للرأس في اللفظ ..... الا ترى أنك لو قلت : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ! وهل ترى الروعة التي كنت تراها !

وأعلم أن في الآية شيئاً من جنس النظم ، وهو تعريف الرأس بالألف واللام ، وافادة معنى الاضافة من غير اضافة ، وهو أحد ما أوجب المزية ، ولو قيل : واشتعل رأسي ، فصرح بالاضافة لذهب بعض الحسن»[39] .

ومرد هذا في رأي عبد القاهر الجرجاني أن هناك معاني نصل إليها مباشرة بدلالة الألفاظ ، وأخرى بواسطة ما يترتب على دلالة تلك الألفاظ وهذا هو مصطلح المعنى ومعنى المعنى فيقول في هذا الصدد : «واذ قد عرفت هذه الجملة ، فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول : المعنى ومعنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهرة اللفظ ، والذي تصل اليه بغير واسطة ، ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك المعنى إلى معنى آخر ، كالذي فسرت»[40] .

الخلاصة :

– ان الغاية التي نسعى الى تحقيقها أن نثبت أصالة منهج تفسير النصوص عند العرب ، وقد تجلت علمانية هذا المنهج في النصوص القرآنية ، كما لمسنا ذلك السمو مع أبي حيان الأندلسي جذع الزمخشري فيما أثبتنا من نصوص قرآنية كنماذج وما لم نثبت أكثر ، فالبحر المحيط تحفة لغوية يتمتع بها كل دارس لتشاقيق اللسان العربي المبين فهو ينصب على النص انصباباً ، ويحلله تحليلا ثم يستعرض تلك المعاني والأحكام من علم النحو الذي يقول عنه ابن خلدون «إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ والخبر ، ولولاه لجهل أصل الافادة»[41] .

– هذا المذهب الأصيل ينبغي تطعيمه بالمعطيات الحديثة لعلوم اللسان البشري الذي أصبح علم العلوم «اللسانيات» يدرسه الفيلسوف وعالم الرياضيات وفقهاء التشريع وغيرهم ، ولا يستطيع أن يستغنى عنه مثقف في عصرنا هذا .

– تجسيم هذا المذهب يتطلب طريقة واضحة الخطى في تفسير النصوص اللغوية تجمع بين اللسانيين في مشارق الأرض ومغاربها ، لها خطوات محددة ومفتوحة تتفق فيها عبقرية الأساتذة ، ويتنافس المتنافسون في تجسيدها واثرائها .

والله ولي التوفيق

الهوامش

(1) الآية 24 من سورة ق .
(2) الآية 15 من سورة العلق .
(3) الآية 32 من سورة يوسف .
(4) ص 14 وما بعدها من شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري تحقيق عبد السلام بن هارون دار المعارف 1963 .
(5) ص 279 دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني – المنار – 1266 هـ .
(6) ص 03 سر الفصاحة عبد القاهر الجرجاني استنبول 54 .
(7) ص 64 دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني .
(8) سورة الرحمن ، الآية الأولى .
(9) سورة النحل ؟ 103 .
(10) ص 12/4 – البرهان في علوم القرآن للزركشي .
(11) ص 03 من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي .
(12) ص 03 البرهان في علوم القرآن .
(13) ص 15 البرهان في علوم القرآن .
(14) شرح أبن يعيش على المفصل للزمخشري ، ص 09 ج 1 .
(15) الكشاف ص 121 وما بعدها ج 1 .
(16) ص 04 من البحر المحيط مجلد 1 .
(17) ص 28 من البحر المحيط مجلد 2 .
(18) مجمع البيان للطبري ص 26 مقدمة التفسير مجلد 1 .
(19) مجمع البيان للطبري ص 27 .
(20) شرح المفصل لابن يعيش ص 83 ج 1 .
(21) الآية 73 سورة هود .
(22) مجمع البيان ص 167 ج 11 و 12 .
(23) ص 5 وما بعدها من كتاب الخصائص لإبن جني .
(24) مجمع البيان ص 27 من المقدمة .
(25) أنظر ما جاء (في الثقافة المصرية) للدكتور عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم .
(26) ص 114 من الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي .
(27) شرع المفصل لابن يعيش ص 78 ج 1 .
(28) الزمخشري ص 103 ج 1 الكشاف .
(29) الخصائص ص 65 وما بعدها الجزء الأول .
(30) الخصائص ص 145 وما بعدها الجزء الثاني .
(31) ابن جني : الخصائص ص 146 ج 2 .
(32) المثل السائر لأبن الأثير ص 53 وما بعدها ج 2 .

(33) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ص 15 وما بعدها ج 2 .
(34) دلائل الاعجاز ص 210 وما بعدها .
(35) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص 22 .
(36) المكتفى في الوقف والابتداء . للداني تحقيق جايد زيدان مخلف ص 04 .
(37) نفس المصدر 106 .
(38) نفس المصدر 406 .
(39) دلائل الاعجاز ص 406 .
(40) دلائل الاعجاز ص 55 .
(41) مقدمة ابن خلدون ص 1035 طبعة بيروت .